

مجله اللسان العربي العدد: ١٠، السنه: ١٩٧٣.

فلسفة الحركات في اللغة العربية

الأستاذ أحمد الأخضر غزال

مدير معهد الدراسات والابحاث للتعريب

— الرباط —

1 — القســـم الاول :

من المعلوم ان اللسان هو العضلة الاساسية التي نستعملها داخل الفم لاخراج الاصوات اللغوية بمشاركة اعضاء اخرى خصتها طبيعة التركيب البدني بالمساهمة فى انتاج الكلام على اساس تبثق نفساني بديع يتصرف فى عمليات بدنية متسلسلة خلاصتها ان موجات صوتية متتالية منشؤها ذبذبات فيزيائية . تنتشر فى الهواء وتدخل فى الاذن فتتحول عندما تصدم العصب السمعي الى سيالة (اي كهرباء بدنية) تتسرب الى ملايير الخلايا الدماغية لتثير صورة سمعية تنشأ عنها صورة بصرية . ويجب ان تكون الصورتان متطابقتين تطابقا تاما والا حصل سوء الفهم . ويحدث فى الدماغ أثناء التفكير وقبل الرد بالجواب بموجات اخرى ما يحدث فتنطلق من فم المجيب ذبذبات اخرى تنشيء موجات بدورها تطير فى الهواء وتصدم اذن المستمع وتلتقي بعصبه السمعي فتتحول الى سيالة اخرى وتصل الى وحداته العصبية لتثير صورته السمعية يجب ان تكون صورتها البصرية مطابقة لها مطابقة تامة والا حصل سوء الفهم من جديد . ويحدث فى دماغه ما يحدث من التفاعلات الكيميائية والفيزيائية والاحيائية (أي البيولوجية) والنفسانية والروحانية والعقلية وغيرها ولا يدوم هذا كله الا مدة رمشة العين قبل ان ينبث الامر بالاجابة فتتسرب بالسيالة من جديد من المراكز والمناطق الخاصة بالكلام والسمع والبصر لتحرك بواسطة أعصابها العضلات المتحكمة فى أجهزة الكلام كالحنجرة وأوتارها وغضاريفها وكالفم وبلعومه وحفافه ولسانه وشفيته فيخرج الكلام بكل أنواع أصواته الشديدة منها والمتوسطة والخفيفة والثقيلة والطويلة والقصيرة الى غير ذلك من غرائب خلق الله وعجائبه سبحانه تعالى عز وجل .

الاصـــوات اللغويـــة :

واذ لا حركة ولا سكـون الا باذن الله فان الاصوات التي يخرجها الانسان من جهازه لا يخرجها بدون سبب كما ان لكل ما يصدر عن الانسان ولكل ما يحصل له اسبابا منها المجهول ومنها المعلوم ، بله : كل ما يقع ويحدث فى هذا العالم بمعناه العام له اسباب ، ولهذه الاسباب أسباب أخرى لها اسبابها التي تنشأ عن أسباب ، منها المجهول ومنها المعلوم الى غير ذلك من اسرار الطبيعة التي لا نعرف عنها الا القليل . وعلم الاصاتيات يخبرنا بالحركات التي تؤدي بالجهاز الاصاتي الى اخراج الصوائت (فونيمات) التي تشكل الحروف ويجعلنا نقف عند حدود الفوارق ومؤثراتها .

ففيما يخص صويتة الباء بالنسبة الى صويتة الهاء مثلا نعلم جميع ما يحدث اثناء التلفظ بهاتين الصويتتين . فان صويتة الباء يتطلب اخراجها مجهودا اكبر من المجهود الذي يقتضيه اخراج صويتة الهاء ، لانه يفرض العمليات الآتية :

يحدث نشاط كيميائي وكهربائي تفاعلي داخل المشتبكات (والمشتبكات هي الامكنة التي تشتبك

فيها الاستطالات الشعرية الخاصة بالوحدات العصبية التي تنساب معها السيالة العصبية ، وهذه المشتبكات تشبه مراكم كهربائية (اي بطاريات) فيها عدة خلايا في كل واحدة منها مادة كيموية اساسها الكالسيوم والبوطاسيوم والصوديوم وأنواع مختلفة من العناصر النادرة كالحديد والمنغانيز والبور والماغنيزيوم والكوبالت الخ ... والكل منماث (ذائب) في سائل خاص يسمى الخليل المراري (الاسيتيلكوليسن) والتفاعل الكيموي الذي يحدث في هذه المشتبكات يخلق الكهرباء الخاصة بالبدن وهي السيالة . وهذه السيالة مهمتها حمل الاهاجات (اي الطلقات العصبية) الى الوحدات العصبية الاخرى او الى أجهزة التنفيذ المحيطة كالعضلات مثلا . وفيما يخص نقطة موضوعنا بالضبط تتسرب طاقات سيالية نحو عضلات الحجاب الحاجز لترتفع الاضلاع فتنتفخ الرئتان اذاك ويحدث امتصاص للهواء الخارجي الذي يتسرب اليهما من منفذ الانف او الفم او منهما معا – بعد ان حصلت في مشتبكات أخرى من الدماغ عمليات أخرى لأمر عضلات الفم بفتحه – فينساب الهواء مع الرغامى (أي القصبة الرئوية) الى القصبتين اللتين تتشعبان في الرئتين ، وذلك بعد حدوث اهاجات أخرى في الدماغ امرت عضلات الحنجرة بابعاد الوترين الصوتيين الواحد عن الآخر لينفسح المجال امام الهواء الجاري نحو الرئتين– ثم بعد ذلك تنطبق الشفتان الاحدى على الاخرى عندما تضغط الرئتان الهواء ليفر منهما متسربا مع الرغامى فيجد الأوتار الصوتية قد تباعدت لتسمح له بالمرور فيصل الى البلعوم وعند ذلك أو قبل ذلك بقليل يرتفع الحفاف بلهاته وينطبق على منفذ الانف ليسده مانعا الهواء من التسرب منه حتى لا تحصل الغنة في صوت الباء ثم يصل هذا الهواء الى الفم ويريد النفوذ من بين الشفتين فيجدهما منطبقتين كما اسلفنا فيصدمهما ويحاول تفريجهما فتزداد حركة عضلات الشفتين تقلصا ويزداد انضمام الشفتين شدة لمنع الهواء من الخروج ويشتد ضغط الهواء على الشفتين وعلى الشدقين وعلى الحفاف وكل هذه الاعضاء تقاوم ذلك الضغط بالتقبض والتقلص ، واذا بالوترين الصوتيين يقتربان ويشرعان في التذبذب لانشاء ما يسمى باللحن الحنجري الذي سيجعل من حرف الباء حرفا مجهورا لا مهموسا فتحصل اذاك عملية الترنن وهي فزيائية محضة ، وفجاة تتباعد الشفتان الاحدى عن الاخرى وينفلت الهواء المضغوط بعنف وشدة خارجا من الفم المفتوح وحاملا صوت الباء الجهيرة عبر الهواء الطلق في شكل موجات صوتية .

هذه العمليات كلها بتناسقها العجيب وأنواع حركاتها الدماغية والعصبية والعضلية الدقيقة هي التي تتطلبها الباء ونحن غير شاعرين .

اما الهاء فلا شيء من ذلك فيها الا خروج الهواء الحامل ذبذبات الوترين الصوتيين بينما تكاد أعضاء الفم تكون في حالة استراحة وارتخاء .

وما يحدث للباء خفيف بالنسبة الى القاف والكاف والراء والخاء والشين والصاد وثقيل بالنسبة الى الحاء والعين والغين والفاء والهمزة الخ ...

واذا اشتد خروج الاصوات الثقيلة فذلك لسبب . واذا خف فذلك لسبب ايضا أراده العقل ليعبر عن الشدة مع الاصوات الشديدة وعلى الليونة مع الاصوات اللينة ومثال ذلك : هف وقض ؛ فهفت الريح : هبت فسمع صوت هبوبها ، وهب الشيء : خف وهب الرجل : اسرع في سيره والهف الخفيف من الناس ، وكل شيء خفيف لا شيء في جوفه والسمك الصغار ، وسحاب هف : رقيق لا ماء فيه . بينما نرى في قض ما يلي : قض عليهم الخيل ارسلها ونشرها وقض الحائط هدمه هدما عنيفا وقض الوتد : قلعه وقض الشيء دقه وقض السير او الوتر ، سمع له صوت كأنه قطع الى غير ذلك من المعاني . فكلما خفت في هف اشتدت في قض .

وهناك فكرة اخرى وهي فكرة الاستساغة ، استساغة الصوت بالنسبة للمدلول . فان كان صوت الهاء لا يتطلب نفس الجهد الذي تتطلبه القاف والراء مثلا فان أصوات الحروف وانغامها ورنينها وأجراسها موضوع استحسان او استخشان من طرف الانسان (انظروا هنا الى الفرق بين مادة حسن ومادة خشن ، فالحاء لطيفة والخاء ثقيلة) فلكل لطيف وانيق وجميل وحلو ومطرب ومفرح ومسعد اصوات لطيفة لينة موسيقية ، ولكل خشن وثقيل وخبيث وبشع ومقلق ومحزن الخ .. اصوات تناسب تلك الصفات بمعاني اصواتها .

وهذه الافكار انتبه اليها فقهاء اللغة القدماء فخصصوا لها ابوابا مشهورة عنونوها بمطابقة اللفظ للمعنى ، ومن اشهرهم في هذا ابن جني ، كما الفوا فيها كتبا أشهرها قاموس مقاييس اللغة لاحمد ابن فارس ، الا أن علماءنا المحدثين ممن تتلمذوا على

العلماء الاوربيين اقلعوا عن هذه الابحاث النفيسة لانهم عملوا بنظريات العلماء الغربيين الذين فشلوا في بحث هذا الموضوع ولا غرابة ، لانهم لهم يحافظوا على لغتهم الاصلية فأصبحت لغاتهم خليط لهجات لا تطابق طبيعتها عبقريتهم ، اذ لكل شعب خصائصه اللغوية لا سيما في موضوع الاستساغة ، فهذا الشعب الالماني مثلا يستحسن صويتة الخاء وصويتة الراء الرنانة ، بينما الشعب الفرنسي يستقبحها . وهذا الشعب الانكليزي ينفر من « تغنين » الانكليزية ، بينما الشعب الامريكي يستحسنها — وبينما لا نرى شعبا أوروبيا يجيد صوتية الأو (u) اذا بالشعب الفرنسي يكثر منها — وتغلب صويتة الشين في البرتغالية ، كما تغلب عملية التقعر البلعومي في اللغة الروسية ، وما أحلى صوائت الحاء والهاء في اذننا ، وما اقبحها في اذن غيرنا الخ . . من الاعتبارات التي يرجع سببها الى اختلاف الذوق .

لهذا كله لا تصح هذه النظريات الا في موضوع لغة أصيلة بالنسبة الى شعبها الاصيل ، ومعنى هذا انها لا تنطبق على الالفاظ الدخيلة والاجنبية مع مراعاة التفاوت داخل شعب واحد ، ومن قبيلة الى قبيلة ، ومن بطن الى بطن ، ومن حي الى حي ، وحتى من عائلة الى عائلة ، ومن أسرة الى أسرة .

ولا ننتظر الوصول الى نظرية شاملة قائمة على أسس متينة في مدة قصيرة لان في هذا المطلب من التداخل بين الاصوات باعتبار الحقيقة والمجاز وباعتبار الاقدمية والاحدثية وتغير الصوائت عبر التاريخ بالنسبة الى اللهجات العربية من جهة وبالنسبة الى تغير الدلالات من جهة اخرى مما هو في الحاجة الى تضافر الجهود وتبادل الخبرات وتوفر اجهزة العد والاحصاء والترتيب والتصنيف الشيء الذي ينقصنا اليوم . وقد يتبادر الى الذهن انن هذا العلم في متناول اي شخص اذا ما اعتمد على الملاحظة والمقارنة بوسائله الخاصة . كلا ! وحذار ثم حذار ! لان اجدادنا اللغويين وهم المعروفون بالدقة والاجتهاد وسعة الباع ان اجادوا في بعض هذا العلم فان وسائل نقصتهم فتوهموا في بعضه الآخر .

واذا كانت الحروف تتكون من الصوائت فان الكلمات تتكون من الحروف . واذا كان لكل حرف معنى فان مجموع معاني الحروف يؤدي الى معنى الكلمة ومجموع معاني الكلمات يؤدي الى معنى الجملة ، وهنا قال علماءنا بمطابقة التراكيب للمعاني كذلك وقالو ان الزيادة في المبنى زيادة في المعنى ، بدون اعتبار دوران الحركات في الاوزان . فبحر جمعه بحور وبحار وابحرة واباحير وابحار ، والبحر قليل التركيب لانه يدل على المفرد وجموعه اطول منه لانه يدل على الكثرة . ولكن تحديد المعاني بالتراكيب اختلف فيه كما اختلف في ما سبق لعدم توفر مواد البحث في ما وصل اليه العلم الحديث . الا انهم تركوا هذا الموضوع لتعقده واشكاله فلم يعيروا الحركات الاهمية التي تستحقها وغلبت عليهم نظرية السماع والقياس التي كانت سائدة في العلوم اللغوية آنذاك مما ادى الى ما يسمى اصطلاحا بالعامل المؤثر باعتبار متن اللغة أو في ما هو ضمني باعتبار الاعراب . كل ذلك لغاية واحدة هي المحافظة على التراث اللغوي وعلى القرآن ورفع اللحن الذي كان قد انتشر بصورة مهولة . اضف الى ذلك انه كلما ثبت عند بعضهم القياس الا واضعفته شواهد سماعية شاذة مما ادى الى بلبلة الافكار واللجوء الى السماع مع الابقاء على فكرة القياس رمزيا لأن أحدا من القائلين بالقياس لم يجرؤ على تغيير ما اصبح شائعا من اللغة واحلال القياس محل السماع . فبقدر ما درسوا معاني الحروف وتوفقوا في بعض نواحيها بقدر ما فشلوا في معاني الحركات ولم يصلوا الى نتيجة علمية تجعلهم يشيدونها بمثابة قاعدة . فكلهم قالوا عن الفتحة انها اخف الحركات العربية لذلك كثرت في اللغة وقالوا عن الضمة انها أثقل من الفتحة وقالوا عن الكسرة انها اثقلهما . اذن بنوا حكمهم فيما يرجع الى الحركات على اساس سمعي لا جسماني كما فعلوا ذلك فيما يخص الحروف . وهذا الاساس السمعي هو الذي سنحاول الكشف عنه :

فجاء ابراهيم مصطفى في عصرنا الحديث والف كتابه المشهور « احياء النحو » الذي كان له أكبر صدى في هذا الميدان فعلل الفتحة بانها أخف الحركات وانها تدل على شيء وعلل الضمة بأنها علم الاسناد ودليل على ان الكلمة المرفوعة يراد بها الاسناد اليها والمحادثة عنها . اما الكسرة فانها علم الاضافة ، واشار الى ارتباط الكلمة بما قبلها سواء كان هذا الارتباط باداة او بغير اداة ، وقال ابراهيم انيس بعدم معاني الحركات في الاعراب (انظر أسرار العربية) وقال المخزومي : ليست الفتحة علما لشيء خاص ولكنها علم كون الكلمة خارجة عن نطاق الاسناد (الذي هو للضمة) أو الاضافة (الذي هو للكسرة) وان الفتحة هي الحركة الخفيفة المستحبة التي يهرع اليها العربي ما وجد الى الخفة سبيلا ، وهو رأي الخليل وسيبويه ، واما ابراهيم

السامرائي فانه يقول في الفتحة انها وجدت في كثير من اللغات السامية الا انه سرد أقوال « مارسيل كوهن » و « يوهان فوك » الذين يثبتان بأن اللغات السامية كان لها اعراب ، ولم اعثر على نظر له في هذا الموضوع . اما اثبات الاعراب فانه جاء في معظم كتب اللغـة من الصاحبي والمزهر الى كتب فقه اللغة الحديثة .

ومن الذين عالجوا هذا الموضوع عبـد الله العلايلي الذي قال : « باب ضرب يضرب » يخضع له التلبس بحركة الفعل في الزمن الحاضر ، بينما الخمسة الاخرى فلافادة معنى زائد ... فاذا أردت الدلالة على التفوقية او التركب فوق الدلالة على التلبس بالحال الفعلية تنقل الفعل الى باب نصر ينصر ولذا طرده اللغويون في المفاخرة والمبالغة (فامرته فقمرته فانا اقمره) واذا اردت الدلالة على التقلب والانسراح تنقل الفعل الى فتح يفتح ولا تلق بالا الى ما اشترطه اللغويون من ان هذا الباب خاص بما كان عينه اولامه حرف حلق فهو تقدير واهن .. واذا اردت الدلالة على التغير خلوا وامتلاء وجودا أو عدما تنقل الفعل الى علم يعلم .. واذا اردت الدلالة على الرسوخ والطبع تنقل الفعل الى حسن يحسن واذا أردت الدلالة على التجزؤ (والتقسم تنقل الفعل الى باب ورث يرث (انظر المعجم للعلايلي) .

وهذه الاقوال كلها اما تكرير لما قاله القدماء واما استنباط منها ، اذ قالوا اجمالا ان « فعل » يفتح العين لمعان كثيرة لا تنضبط ، منها الغلب : قامرني فقمرته اقمره اي اغلبه في القمر ، ومنها ان افعال الحدوث تندرج تحت عنوانه ـ بينما فعل يشمل افعال الغرائز والطبائع فيدل على لزوم مداولاتها لان ما يقتضيه الطبع يدوم بدوامه وتكثر فيه العلل والاحزان واضدادها .. وتجيء في غير فعل الا انها فيه أكثر منها في غيره ، وفعل للطبائع وهي الافعال اللازمة الصادرة عن الطبيعة وهي القوة الموجودة في الشيء التي لا شعور لها بما يصدر عنها ، وخص الضم بها لانضمام الطبيعة الى الذات عند صدور هذه الافعال منها كانضمام الشفتين عند خروج الضم منها.

وفي الحرف الاول من الفعل قالوا : لما كانت العرب لا تبتديء بساكن فلا تكون ساكنة فاؤه ساكنة ولا تكون مكسورة ـ الا للضرورة وذلك عندما يكون الفعل اجوف وبني للمجهول او من باب فعل وهو اجوف كذلك وتضم كذلك في الاجوف من باب فعل لا غير ـ اذن لا تكون مكسورة لقوة الكسرة وهو قليل لانه يتغير وليس بثابت كالاسماء ، ولا تضم الا اذا بني للمفعول ، فيبقى الفتح في فاء كل فعل ماض ـ اما الحرف الاخير فهو مبني على الفتح الا اذا طرأ عليه ما يضمه أو يسكنه . وحرف الوسط فقد ذكرنا ما جاء عندهم فيه .

ونستنتج مما سبق انه ليس هناك قاعدة عامة يطمئن الفكر اليها ويركن وان السماع هو الاساس بيد انه اذا تتبعنا بازاء معالجة معاني الحروف ، معاني الحركات قد نهتدي الى شيء مضبوط ناتج عن الاحصاء من جهة وعن اعتبار قانون الجهد والكسل المهيمن على كل ما هو من قبيل تصرف الانسان في عميق حياته . اذ منذ ان ظهر الانسان على البسيطة الا وحاول وما يزال يحاول ان يوفر لنفسه أسباب الحياة بأقل جهد ممكن مما ادى به الى هذه الاختراعات العجيبة التي يريد تسخيرها لخدمته ليعيش سعيدا والسعادة لديه معناها الحصول على كل ما من شأنه ان يلبي رغائبه وحاجاته وآماله بلا تعب ولا مشقة . اضف الى ذلك ان له نشاطا عقليا جعله يتصور العالم بصورة مختلفة باختلاف الاغراض والهوايا والاماني والخيال والشعور وبما يؤثر به على الطبيعة وعلى غيره من البشر وبما يتأثر به من الطبيعة ومن المجتمع . ومن الاسباب التي دفعتنا الى تركيز البحث على معاني الحركات التناقض الظاهر في مدلولاتها .

فهذه لغة ـ العربية تبدو لك في كتابتها مبنية على أساس حروف صامتة وهذه الحروف لا تصوت الا مع علامات خاصة توضع فوقها او تحتها وهذه العلامات لا تنطلق وحدها لانه لا يوجد في العربية معنى يفاد بصوت حركي مفرد كما هو الشأن في اللغات الاوروبية حيث « أو » ((ou)) مثلا تفيد مدلول المكان ، او التخير يعني انه لا يوجد لفظ مكون من حركة واحدة والكلام كله صوائت (جمع صويتة = فونيم) مركبة من حروف مع حركاتها لا من حروف وحدها ولا من حركات وحدها فالكلام عند العربي من كلم اي جرح وشق بمعنى فتح (الصمت) فهو مكاشفة ومباشرة من الكشف اي رفع الستار عن المختبىء ومن البشر اي الشق والفتح ـ والعربي يعتبر ان الانسان في سكوت وسكون وهدوء بالنسبة الى العالم الذي يعيش فيه وبالنسبة اليه اي الى وضعه فيه ، فهو يكلم هذا العالم الغريب عند التعبير كما يفطر ذلك الصمت الذي هو الصيام ، لذا سمي افطارا من فطر اي شق وقطع ، الله فاطر السماوات والارض اي خالقها من فعل خلق اي شق : خلق وخرف وخرج وحرك الخ . والحركة

اما يقوم بها الانسان واما تحصل له من غيره من البشر الذي يعيش معه او من العالم الذي هو فيه بالنسبة الى عناصره من ريح ورعد ومطر ونار الخ . . . فهو اما مؤثر على العالم واما متأثر به . فالعربي ، بهذه الفلسفة التي تتجلى في لغته واضحة لانه حافظ نسبيا على أوضاعها بينما نراها اندرست في اللغات الاخرى يرى العالم في ابعاد ثلاثة كما ان لغته مبنية على ثلاث حركات ، حركة الفتح اي التأثير على العالم الخارجي وهو عمل صادر عن الارادة ، مثل ضرب وقتل وخرج ونطح وقطع واكل وفتح ودحل وصرع الخ . . وكلها افعال مفتوحة العين لان الفتحة تدل على العمل الصادر عن الفاعل بارادة منه حقيقة او مجازا — ثم حركة الكسر اي التأثر الذي يحصل للفاعل من طرف العالم الخارجي ، فالكسر والخسر والقصر والخزل كلها بمعنى حصول الشيء للفاعل المغلوب المقهور . فالفعل المكسور العين يدل على كل ما يحصل للفاعل بدون ارادة منه حقيقة او مجازا مثل مرض وحزن وعطش وعلم وفرح وسقم وغرق وعسور وحدب وجزع الخ . . ثم الضم (والطم والتم وكلها تدل على التجمع والكثرة والدوام والثبات) ك : حسن وخشن وكبر وصغر وقرب وعرج وعور ودخن وشرف وكلها بمعنى حصول الشيء للفاعل لا حصولا طارئا أو مؤقتا كما هو في فعل بل بكثرة ودوام وثبات ونهاية . كل هذا مبني على اساس قانون الجهد والكسل الذي اشرنا اليه . فبما ان الحروف بشدتها ورخاوتها ، برخومتها وخشونتها تصدر عن الانسان للدلالة على الشدة والرخاوة والرخومة والخشونة في الاشياء وأوصافها فان الحركات كذلك يجب أن تعتبر على هذا الاساس الجسماني الا ان فكرة الثقل والخفة بالنسبة الى الاذن حسب ما ذهب اليه الاقدمون فكرة ناقصة لانها مبنية على ظاهر اللفظ لا على باطنه المحرك الذي هو النشاط العصبي الدماغي بالنسبة الى تحكم الانسان في كلامه . واذا كان ذلك كذلك فلنا ثلاث حركات تقوم بها اعضاء الكلام لاخراج ثلاثة انواع من الحركات : الفتحة والضمة والكسرة التي تتصرف في جميع اللغة ، فلماذا الفتحة تدل على العمل الارادي ؟ لان فكي الفم عند اخراج صويتة الفتحة يبتعدان الواحد عن الآخر . وما الذي يبعدهما ؟ ثلاث عضلات : الاولى عضلة قوية جدا عريضة وغليظة تسمى الماضغة Masseter وعضلة ثانية تساعد الاولى وهي الجناحية Ptérigoïdien وعضلة ثالثة هي الصدغية Temporal تساعد الثانية اذن ثلاث عضلات قوية لرفع الفك الاسفل حتى يتمكن الفم من العض والقطع للمأكولات وهذه العملية عملية اقفال الفم — هي أساس حياة الرجل لتلبية حاجته الاساسية ليعيش اما ابعاد الفك السفلي عن الفك العلوي فتقوم به ثلاث عضلات كذلك الا انها ضعيفة ، وهي ذات البطنين Digastrique والضرسية الامية Mylohyoïdien والذقنية الامية Géniohyoïdien فعملية الاقفال اذن بفضل عضلاتها القوية اسهل وايسر من عملية الفتح الضعيفة العضلات فاخراج الفتحة اصعب من اخراج الضمة التي تقتضي فتحا اقل من الذي للفتحة وهي اصعب بدورها من الكسرة التي تقتضي انفتاحا قليلا للفم حتى ان صويتة الكسر قد تخرج ويكاد الكفان يكونان منطبقين الواحد على الآخر وفي الحقيقة اذا قال القدماء بخفة الفتحة وثقل الضمة والكسرة باعتمادهم على ظاهرة الجمال الصوتي فذلك له اساس في اعماق الانسان الا وهو الكلام المفتوح يروق لما يوحي به من حركة ونشاط وحيوية وارادة بالنسبة الى الكلام المكسور الذي يشير الى الانهزام والخضوع والرزوخ وبالنسبة الى الضم الذي يدل على التراكم والتفاقم والسكون والركود .

واذا تمهلنا في هذه النظرية وتأملناها تأملا متئدا عميقا في حد ذاته ثم بالنسبة الى أصول اللغة لا الى فروعها وأخطائها وشائعها ، وتبصرنا امورها الباطنية اعتمادا على فلسفة الحركات بالنسبة الى البدن البشري وطبقناها تطبيقا محكما ، امكننا اذاك ان نشيد نحوا جديدا منطقيا يكشف لنا الستار عن النحو القديم الاصيل الذي بنى عليه العرب القدماء لغتهم فأصبحت مطابقة لاغراض عقلهم وشعورهم واحاسيسهم اي بكلمة واحدة مطابقة للحياة ، اذا فعلنا هذا ستصبح اذاك العربية أسهل اللغات بالنسبة الى العقل اي بالنسبة الى ما يريد العقل التعبير عنه فيمكن حينئذ ان نسترجع ملكة اللغة العربية التي ضاعت وبضياعها انزوت في السماع اي في الحفظ بخطئها وصحيحها بدون معيار للتمييز بين الصالح والفاسد وبين التطور الدائر المتكرر والتقدم القاصد الهادف الى الكمال .

الامثلة :

خذوا مثلا مادة « دخن » التي جاءتنا منها الابنية الثلاثة : دخن ودخن ودخن ، فانكم تجدون ما يلي :

دخن (بفتح العين) الدخان : اذا سطع وارتفع ، وهنا تشخيص للدخان وكأنه يرتفع بارادة منه .

ودخنت (بفتح العين) النار : ارتفع دخانها (اي اطلقت الدخان فارتفع . وهنا تشخيص كذلك لفعل الفعل اراديا) .

ودخنت (بكسر العين) : القي عليها حطب فافسدت فهاج دخانها (والمعنى واضح ، أي حصل لها الدخان وأصيبت به فأصبح الدخان يحصل لها ويؤثر عليها) .

ودخن (بكسر العين) الطعام واللحم وغيرهما : اذا اصابه الدخان في حال شيه أو طبخه حتى تغلب رائحة الدخان على طعمه (وهنا معنى الحصول واضح) .

ودخن (بكسر العين) الطبيخ اذا تدخنت القدر ـ وشراب دخن (بكسر العين) : متغير الرائحة (اي بالمعنى الحقيقي رائحته هي رائحة الدخان وبالمعنى المجازي : لم تبق رائحته الاصلية فتغيرت واطلق اللفظ على سبيل العموم) ـ

ودخن (بفتح العين) الغبار : سطع وارتفع (أي كما يسطع الدخان يسطع الغبار) ـ

ودخن (بكسر العين) خلقه : ساء وفسد وخبث (بمعنى حصل لها السوء والفساد والخبث) ودخن (بضم العين) النبت ودخنت (بضم العين) الدابة دخنة مثل دخن (بكسر العين) (يستخلص منه الثبات والدوام على حالة الدخنة اي الكدرة يعني صار نهائيا في ذلك اللون أو لم يستطع الصبر على كثرة الدخان) .

واذا اخذنا مادة أخرى فيها الابنية الثلاثة مثل « ش ر ف » ومعناه العلو نرى ما يلي : شرفه (بفتح العين) : غلبه في الشرف . وشرف (بفتح العين) الحائط : جعل له شرفه ، وشرفت (بفتح العين) الناقة : صارت شارفا (أي على سبيل التشخيص علت وارتفعت في السن) وشرف (بكسر العين) الرجل : دام على اكل السنام (بمعنى غلبت عليه شهوة اكل السنام اي الشرف وهو السنام أصلا من نفس المادة) وشرفت (بكسر العين) الاذن وشرف (بكسر العين) المنكب : ارتفعا اي شرفا (بكسر الراء) اي صار مرتفعين ـ وشرف الرجل (بضم العين) صار ذا شرف (أي في حالة ارتفاع وعلو ثبتت فيه واصبح يتصف بها) وشرفت (بالضم) الناقة : صارت شارفا (والفرق بين شرفت الناقة (بالكسر) وشرفت (بالضم) واضح فالاول ملحوظ الوصف بعد عدمه والثاني كثرته وتراكمه ودوامه حتى اصبح في أعلى درجة منه)) .

وفي مادة « حزن » حزن (بالكسر) حزنا وله وعليه : ضد سر أي حصل له الحزن ـ وحزنه (بالفتح) ضد سر (لغة تميم وهي عندي أقرب الى الاصل العربي من لغة الحجاز) ، ولم يرد « حزن » (بالضم) في الاستعمال تلافيا للطيرة مع أن مصدره حزونة بقي مستعملا بالمعنى الحقيقي وهو غلاظة الارض وشدتها .

وفي مادة « بثر » بثر وبثر وبثر بالتثليث وجهه خرج به بثر : (والمفهوم الضمني المعاقبة بين الثاء والزاي : « بزر » والمعاقبة بين الثاء والصاد : بصر ـ ومراعاة القلب المكاني : ثبر ـ فيأتينا منه معنى القروح ومعنى الكثرة ومعنى نوع من الارض . واذا وقفنا على المعنى الاول فمفاده : بثر (بالفتح) وجهه : اخرج بثورا . وبثر (بالكسر) وجهه حصلت له بثور . وبثر (بالضم) وجهه وهو : أصبح ذا بثور فهناك تدرج واضح في المعاني بين فعل (بالفتح) وفعل (بالكسر) وفعل (بالضم) وذلك في الافعال كلها .

وباعتبار هذا كله نصل الى الحقيقة الآتية وهي أن العربي كان ينطق حسب ما في دماغه من أغراض . واللغة العربية ـ داخل حدود نظريات وقواعد ثابتة ـ اداة تمتاز بطواعية للتعبير عن جميع ما يختلج الفكر لا ميل لها في أي لغة من لغات هذا العالم .